Route Educational & Social Science Journal

Volume 6(8); September 2019

Artical History

Received/ Geliş	Accepted/ Kabul	Available Online/yayınlanma
05.07.2019	15.08.2019	01.09.2019.

The historical causation of the sources of the Abbasid era

السببية التاريخية بمصادر العصر العباسي

أ. م. د. ندى موسى عباس– جامعة ديالى

A . M . Dr . Nada Mousa Abbas

Faculty of Education for Human Sciences University of Diyala

ملخص

ركز البحث في السببية التاريخية كرؤية فلسفية مبكرة لدى المؤلفين المسلمين (العلماء والفلاسفة والأدباء والفقهاء والمؤرخين) في مصادر العصر العباسي . وبيان الوظيفة البحثية لهذه السببية وأنواعها لديهم والتحقق من أصلها ، وممن استوحاها هؤلاء الكتاب والمفكرين والعلماء والفلاسفة المسلمين في هذا العصر .

تكمن أهمية البحث في بيان تاريخ وأصول الرؤى الفلسفية المبكرة لفلسفة التاريخ لدى كتاب ومؤرخي العصر العباسي . ومن ابرز أهداف البحث هي تعزيز مفاهيم فلسفة التاريخ لدى المؤرخين وبيان الأصول لمفردات قواعد البحث العلمي التاريخي لديهم . ويقوم البحث في هيكلته على ثلاثة محاور فقد تناول المحور الأول أصل السببية ، وتاريخ العناية بها لدى مؤرخي وفلاسفة اليونان ، وبين المحور الثاني السببية التاريخية في القرآن الكريم ومؤلفي العصر العباسي ، فيما أستعرض المحور الثالث أنواع السببية التي أوردها المؤلفين بالعلوم المتنوعة في مصادر العصر العباسي .

ظهرت السببية التاريخية كأداة بحثية تحليلية ورؤية فلسفية ، بوقت مبكر لدى المؤلفين والمصنفين المسلمين بالعصر العباسي ، وقد استوحوا أصولها أولاً من أساليب المخاطبة في القرآن الكريم ، ومن ثم توسعت أفكارهم ونضجت رؤاهم ، بعد اطلاعهم على الفلسفة اليونانية .

لقد مرت السببية التاريخية كما العلية برحلة إنسانية فكرية وعلمية وفلسفية مرافقة لعلوم وفكر الشعوب وحضاراتها . كما هي عند فلاسفة وعلماء الإغريق واليونان ومؤرخيهم . كما ادرك المسلمين أهميتها وقيمتها بفهمهم لها من آيات القرآن الكريم ، وتداول فلاسفتهم مفهومها لاسيما بالعصر العباسي.

الكلمة المفتاحية : تاريخ . مصادر . عباسي . فلسفة .

Abstract

The study of historical causality as an early philosophical vision of the Muslim authors (scholars, philosophers, writers, scholars and historians) in the sources of the Abbasid period. And a statement of the research function of these causations and their types and verification of origin, and those inspired by these writers, thinkers, scientists and philosophers of Muslims in this age.

The importance of research lies in the statement of the history and origins of the early philosophical visions of the philosophy of history among the writers and historians of the Abbasid period.

One of the main objectives of the research is to promote the concepts of historians' philosophy of history and to explain the origins of the vocabulary of their historical scientific research bases. The first axis deals with the origin of causality, the history of care with Greek historians and philosophers, and the second historical causal axis in the Holy Qur'an and the Abbasid periodicals. The third axis deals with the types of causality mentioned by the authors in various sciences in the sources of the Abbasid period.

Historical causation emerged as an analytical research tool and a philosophical vision early on by the Muslim authors and writers of the Abbasid era. Their origins were first inspired by the methods of addressing the Holy Qur'an.

Historical causality has passed through the attic as a journey of human intellectual, scientific and philosophical accompaniment to the science and thought of peoples and civilizations. As are the philosophers and scientists of the Greeks and Greeks and their historians. The Muslims also realized their importance and value in their understanding of the verses of the Holy Quran, and the circulation of their philosophy, especially the Abbasid era.

المقدمة :

أن أحداث التاريخ بنظر الفلاسفة ليست فوضوية ولا مصادفة عمياء ؛ فهم يعتقدون أن في السلوك الإنساني درجة من النظام والنسق ، تصل إلى إمكانية التنبؤ بها ، وكل تركيز على التنبؤ في الدراسات التاريخية تهدف إلى توجيه السلوك في المستقبل ، علماً بأن أي تنبؤ لن يقوم إلا على افتراضات سببية . (أتكن ، ترجمة محمود زايد ، دار العلم للملايين ، بيروت ، 1963 ، دراسة التاريخ وعلاقتها بالعلوم الاجتماعية ، ص ص 95 ، 104) .

قديمة هي السببية (العلية) ويرجع وجودها إلى عصر البدائية ، حيث لم يعدم الإنسان التفكير في العلاقات السببية بين ظواهر الطبيعة وعللها ، وفي البداية كانت الأسباب ترجح في أغلبها إلى العلل الميتافيزيقية الغيبية غير الواضحة ، اذ لم يكن الإنسان ليعرف كيف يعللها . (النجار ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، 2004 . دراسات في فلسفة التاريخ النقدية ، ص 14) .

بزيادة روافد المعرفة والعلوم عند الإنسان ، اكتسبت السببية وقوانينها الأهمية وتبينت قيمتها ، لاسيما في البحث العلمي وعدت أحد مقوماته الأصيلة ، ولو لم يؤمن عالم الفيزياء الإنكليزي أسحق نيوتن *Isaac Newton* (1643 – 1727م) بقانون العلية لما أدى به إلى اكتشاف قانون الجاذبية . وهكذا أصبحت السببية شرط أساسي لفهم العلوم والعقلانية والمنطق الصحيح عند العلماء والفلاسفة والمفكرين . (اليزدي ، دار التعارف للمطبوعات ، بيروت ، 1428 هـ / 2007 ، المنهج الجديد في تعليم الفلسفة ، ج 1 ، ص 11 ، ج 2 ، ص 58 .)

لقد ظهرت السببية التاريخية كأداة بحثية تحليلية ورؤية فلسفية ، بوقت مبكر لدى المؤلفين والمصنفين المسلمين بالعصر العباسي ، وقد استوحوا أصولها أولاً من أساليب المخاطبة في القرآن الكريم ، ومن ثم توسعت أفكارهم ونضجت رؤاهم ، بعد اطلاعهم على الفلسفة اليونانية.

بلغت السببية غايتها عند مسألة وضع القوانين وصياغة النظريات العلمية . والسببية عند الفيلسوف تختلف عما عند المؤرخ ؛ فالفيلسوف يختزل الأسباب الكثيرة الجزئية كما هو معروف إلى علة واحدة شاملة ، أو علتين ليفسر على ضوئها التاريخ العالمي من خلال إعادة تشكيل وقائع التاريخ ليقدم منها صورة عقلية . في حين يعتمد المؤرخ ويستند على الأسباب الجزئية والفرعية بتفاصيلها الصغيرة والكبيرة ، لتعليل وقوع الأحداث الفردية المحكومة بالزمان والمكان . (الجابري ، دار الشؤون الثقافية العامة ، أربد ، بغداد ، 1993 ، فلسفة التاريخ في الفكر الإسلامي ، ص 9)

قسم البحث إلى أربعة محاور ، تناول المحور الأول أهمية وقيمة السببية التاريخية في البحث التاريخي ، أما المحور الثاني فكان عن السببية التاريخية في الفكر اليوناني ، وبين المحور الثالث السببية التاريخية في القرآن الكريم ، فيما أستعرض المحور الرابع أنواع السببية في مصادر العصر العباسي .

المحور الأول : قيمة السببية التاريخية في البحث التاريخي

تعد السببية التاريخية مسألة أساسية في فلسفة التاريخ ومنهج البحث التاريخي في دراسة وتأمل الحوادث والظواهر التاريخية . على أن السببية التاريخية تختلف عن السببية الطبيعية التي تتصف بالثبات إلى حدّ كبير ، وذلك يعود للإرادة الإنسانية التي تتصف بالحرية (النجار ، ، دراسات في فلسفة التاريخ النقدية ، ص 19) وعليه فلا يمكن أن تتشابه السببية أو نتائجها ، في كل مرة يتعرض فيها الأفراد لنفس الظروف اذ تتراكم الخبرات الإنسانية .

من الجدير بالذكر أنه ليس بالضرورة أن تكون الأسباب في العديد من الحوادث التاريخية أسباباً منفردة ، اذ هناك من الحوادث والظواهر التاريخية ما يكون لها أسباب متعددة منها القريبة المباشرة ومنها البعيدة الغير مباشرة ، وعمل المؤرخ هنا لا ينحصر بمعرفة هذه الأسباب إنما أيضا عليه أن يرتبها ترتيباً قائماً على نظام محدد ، ويوضح طبيعة العلاقة التي تربط بين كل هذه الأسباب وبين الحوادث والظواهر المتسببة بها ، وأولوية بعضها على بعض الآخر ، وتمييز السبب الرئيسي الذي يسمى بسبب الأسباب ، والتعمق بالعلة والمعلول فلا يوجد فاصل زمني بين السبب المباشر (العلة التامة) والمسبب (المعلول) ، كما إن السبب لا يتقدم على المسبب . (النجار ، دراسات في فلسفة التاريخ النقدية ، ص 20)

تختلف السببية التاريخية عند الفيلسوف عما هي عليه عند المؤرخ العادي وما هي لدى المؤرخ المتفلسف ؛ فالمؤرخ العادي يفسر الأسباب الجزئية المرتبطة بزمان ومكان معين ، في حين تتسم السببية في فلسفة التاريخ بالشمولية ؛ اذ يختزل المتفلسف العلل والأسباب الجزئية الكثيرة إلى علة واحدة أو علتين يفسر على ضوئها التاريخ العالمي ، ويعيد تشكيل وقائع التاريخ ليقدم منها صورة عقلية واحدة . وقد يختلط التفسير الفلسفي بالتفسير العلمي في الدراسات التاريخية ، وتصور هذه المسألة الصعوبة والمعانات التي يواجها المؤرخون في بناء الحقيقة التاريخية . (زقزوق ، دار المعارف ، القاهرة ، 1994 ، تمهيد للفلسفة ، ص 67) .

بات من المتعارف عليه إن من أبرز العوامل التي تدفع فلاسفة التاريخ للبحث عن العلل الحقيقية للأحداث التاريخية العالمية أو حتى المحلية ، هي الظروف الصعبة التي تولد أرفع الفلسفات في تفسير حركة التاريخ ؛ فعلى سبيل المثال أن التدهور الذي لحق بالدول الإسلامية في العصور الوسطى ، هي التي دفعت أبن خلدون المتوفى سنة 808 هـ / 1406م للاهتمام بالبحث عن الأسباب وراء قيام وسقوط

هـــذه الـــدول ، وكـــذلك الحـــال بالنســـبة للفيلســـوف المـــؤرخ الألمـــاني شـــبنكلر *Spengler* (1880 – 1936 م) الـــذي كتـــب عـــن تـــدهور الحضـــارة الغربيـــة ، ومثلـــه مـــؤرخ وفيلســـوف الحضـــارة الإنكليـــزي تـــوينبي *Toynbee* (1889 – 1975 م) واضع نظرية التحدي والاستجابة بعد الحرب العالمية أولى .

يشـــير أبـــن خلـــدون إلى ضـــرورة وأهميـــة بيـــان الســـببية التاريخيـــة ، وينتقـــد عيـــوب المـــؤرخين الـــذين أغفلوهـــا ممـــا أدى بهـــم إلى الوقـــوع في الـــوهم والأخطـــاء بقولـــه انهـــم : " لم يلاحظـــوا أســـباب الوقـــائع والأحـــوال ولم يراعوهـــا " ؛ (المقدمـــة ، ص 4) فهـــم : " اذا تعرضـــوا لـــذكر الدولـــة نســـقوا أخبارهـــا نســـقاً محـــافظين علـــى نقلهـــا وهمـــاً أو صـــدقاً ، لا يتعرضـــون لبـــدايتها ، ولا يـــذكرون الســـبب الـــذي رفـــع مـــن رايتهـــا وأظهـــر آيتهـــا ، ولا علـــة الوقـــوف عنـــد غايتهـــا ؛ فيبقـــى النـــاظر متطلعـــاً بعـــد إلى افتقـــاد أحـــوال مبـــادئ الـــدول ومراتبهـــا ، مفتشـــاً عـــن أسباب تزاحمها أو تعاقبها ، باحثاً عن المقنع في تباينها أو تناسبها " . (المقدمة ، ص 5) .

أمـــا تـــوينبي فيبـــين أهميـــة الـــوعي لقيمـــة الســـببية التاريخيـــة في تنظيمهـــا والتعمـــق بهـــا وتوضـــيحها عنـــد المـــؤرخين بقولـــه : " وفي رأي ، لـــيس هنـــاك شـــيء ضـــروري للكتـــاب أو لدارســـي التـــاريخ مثـــل أدراك تلـــك الأســـباب الـــتي تفســـر تكـــوين أيـــة سلســـلة مـــن الأحـــداث وتطورهـــا " . (دار المعـــارف ، القـــاهرة الطبعـــة الثانيـــة ، 1995 ترجمـــة لمعي المطيعي ، مراجعة محمد صقر خفاجة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، 1966 ، الفكر التاريخي عند الإغريق ، ص 186)

المحور الثاني : السببية في الفكر اليوناني

منـــذ وقـــت مبكـــر أدرك فلاســـفة وعلمـــاء ومفكـــري اليـــونان ، أهميـــة الســـببية أو مـــا كانـــت تعـــرف بالعلـــة ، في دراســـاتهم وبحـــثهم عـــن الحقيقـــة ، وبفضـــل الفيلســـوف اليـــوناني أرســـطوطاليس *Aristotle* (384 –

322 ق . م) غـدت العلـة لهـا دلالاتهـا الفلسـفية والعلميـة ؛ فقـد نظـم التفكـير في العلـة وجعلهـا شـرطاً أساسـياً للعلـم وتحصـيل المعرفـة والتوصـل إلى الحقيقـة ، والله عـز وجـل هـو العلـة الأولى عنـد أرسـطو . (النشـار دار المعـارف ، القـاهرة الطبعـة الثانيـة ، 1995 م .نظريـة العلـم الأرسـطية ، ص ص 183، 212 ؛كـرم مراجعـة وتنقـيح هـلا رشـيد أمُـون ، دار القلـم للطباعة والنشر والتوزيع ، تاريخ الفلسفة اليونانية ، ص 148)

مـن الجـدير بالـذكر أن فلاسـفة الطبيعـة وابتـداء مـن القـرن السـادس قبـل المـيلاد كـان تركيـزهم علـى العلـة الطبيعيـة الماديـة ، والـتي تقـوم علـى العناصـر الأربعـة (الـتراب والهـواء والمـاء والنـار) ، وذلـك قبـل أن تظهـر العلـة الماديـة الـذرة الـتي أحلهـا فلاسـفة الطبيعـة فيمـا بعـد محـل العلـل الأربعـة الطبيعيـة . (النشـار : المرجـع السـابق ، ص 191) ، وأسـتمر الفلاسـفة في اسـتنباط علـل أخـرى كمثـل العلـة المعنويـة المتمثلـة بالحـب واعتبروهـا في مقدمـة العلـل ، وجـاءت بعـدها علـة العقـل ثم علـة العـدد ، الـتي اهـتم بهـا فيثـاغورس *Pythagoras* (570 – 495 ق . م) معتـبراً إن العـدد هـو أصـل كـل الأشـياء . فيمـا أظهـر أفلاطـون العلـة الصـورية أمـا أرسـطو فقـد طـور العلـل الماديـة والصـورية وذلـك بإضـافة كـل مـن العلـة الفاعلـة (المنتجـة) والعلـة الغائيـة (الماضي والحاضر والمستقبل) . (النشار ، المرجع السابق ، ص ص 186 ، 201)

يعتـبر هـيرودوتس *Herodotus* (484 – 425 ق . م) أول مـؤرخ يشـخص أهميـة وقيمـة الوصـول إلى علـل الأحـداث التاريخيـة (السـببية التاريخيـة) ، والتحقـق مـن صـحة روايتهـا وجسـد ذلـك في تاريخـه الـذي كتبـه ، وكـان يحـرص أشـد الحـرص علـى التحقـق مـن الأحـداث العسـكرية بـزيارة موقعهـا قبـل تسـجيل الـروايات التاريخيـة الـتي كانـت شـائعة عنهـا في عصـره وتعليـل أسـبابها بقـدر المسـتطاع بأسـباب عقليـة . (هـيرودوت ، ترجمـة عبـد الإلـه المـلاح ، مراجعـة أحمـد السـقاف وحمـد بـن صـراي ، إصـدارات المجمـع الثقـافي ، أبـو ظـبي ، 1422 هـ / 2001 م ، تاريـخ هـيرودوت ، ص ص 11 ، 17 ، 21 ، 673 ، 715 ؛ النشـار ، دار المسـيرة للنشـر والتوزيـع والطباعـة ، عمـان الطبعـة الأولى ، 1433 هـ / 2012 ، فلسفة التاريخ معناها ونشأتها وأهم مذاهبها ، ص 96)

كان لهيرودوتس هدف واحد في غاية الأهمية ، ألا وهو تتبع أسباب الحروب الفارسية – اليونانية ، وقد تقصى هيرودوتس عن الأسباب المباشرة وغير المباشرة لهذه الحروب وكان استقصائه غير مسبوق ، كما أنه مزج بين " التعليل العقلي والتعليل الميثولوجي في تفسيره للأحداث " . (الشكرجي ، موقع جامعة بابل ، كلية الآداب ، المقالات الأكاديمية ، 15 / 6 / 2011 ، السببية التاريخية عند اليونان ، ص ص 2 ، 4 – 6)

أستقلت فكرت السببية التاريخية عند المؤرخ الإغريقي ثوكوديدس *Thucydides* (460 – 400 ق . م) عن كل ما له علاقة بالآلهة والقدر والقصص الأسطورية ؛ فالأحداث التاريخية هي من صنع الإرادة الإنسانية ، بمعنى إن ثوكوديدس رفض أي تفسير ميتافيزيقي (غيبي ما وراء الطبيعة) ، كما أنه أول من أعطى للأسباب الاقتصادية والاجتماعية الاعتبار المهم في تفسير الحوادث التاريخية ، وقد فرض ثوكوديوس على نفسه قيود ، منها أنه أستبعد من تاريخه القصص والأساطير ، ويبدو انه فعل ذلك عامداً متعمداً حتى لا يكرر ما عابه هو على هيرودوتس ، وكره أن يصبح تاريخه مصدر متعة أو موضوعاً للتسلية وتمضية الوقت فحسب ، وهو يدرك إن أسلوبه العلمي هذا قد يكون جاف لمحبي الإثارة والتشويق بروايات القصص التاريخية ؛ فيقول عن كتابه " الحرب البيلوبونيزية *ThePeloponnesian War* ":" إني أخشى أن يكون كتابي هذا أقل جاذبية لخلوه من القصص الخيالية ... ما من شك في أن خلوّ كتابي من الطابع القصصي سوف يفقده شيئاً من الجاذبية لدى قارئه ، ولكن حسبي أن ما أقوله سيجده أولئك الذين يحرصون على أن يفهموا فهماً صحيحاً حقيقة ما مضى من أحداث ، لأن من المحتمل أيضا أنها سوف يتكرر حدوثها ثانية ولو على نحو مشابه ، بمقتضى ثبات الطبيعة البشرية : فهذا العمل لم يُكتب ليحقق فوزاً مؤقتاً ، ولكن ليبقى تراثاً خالداً " . (العبادي ، مجلة عالم الفكر ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، العدد 1 ، المجلد 31 ، سبتمر ، 2002 ، نشأة الفكر التاريخي وتطوره عند اليونان ، ص ص 40 – 41)

لم يختلف الكاتب والمؤرخ والرياضي والسياسي والعسكري اليوناني بوليبيوس *Polibius* (201 – 120 ق . م) عن ثوكوديدس في اعتقاده باستقلالية السببية التاريخية عن بقية الأسباب الميتافيزيقي ؛ فهو يقول في ذلك : " عندما تستطيع أن تكشف سبب حادثة معينة ؛ فهو غير مسموح به في نظري ، أن تنسبها إلى الآلهة ". (الشكرجي ، المرجع السابق ، ص 12)

لقد بلغت السببية التاريخية قمة النضج على يد المؤرخ اليوناني بوليبيوس ، وذلك في القرن الثاني قبل الميلاد ، اذ تناولها بشكل أوسع وأعمق وأدق وأكثر وضوحاً ووعياً ؛(الشكرجي ، المرجع السابق ، ص 11) فكان التاريخ عند بوليبيوس عباره عن أحداث متتابعة كل حدث منها يعد علة لحدث تال له وهكذا . (تويني : الفكر التاريخي عند الإغريق ، ص 186) وعلى ما يبدو ان بوليبيوس قد تأثر بآراء أرسطو في التمييز وسع نطاق البحث عن الأسباب وميز بين نوعين منها هي العلل القريبة التي هي سمة البحث العلمي ، والعلل البعيدة التي هي خاصية البحث الفلسفي وهو بذلك يعتبر أول من فرق بين الأسباب القريبة والبعيدة بشكل واضح ودقيق .(تويني ، المرجع السابق ، ص 172 ؛ النشار ، فلسفة التاريخ معناها ونشأتها وأهم مذاهبها ، ص 96)

كما ذكر بوليبيوس فائدة معرفة السببية التاريخية بقوله : " ماذا يفيد القارئ أن يخوض في حروب ومعارك وحصار واسترقاق الشعوب ، ما لم يكن يقصد إلى أن يذهب إلى ما وراء ذلك فيقف على الأسباب التي أدت إلى انتصار فريق وهزيمة الفريق الآخر في موقف بذاته كل على حدة ؟ إن نتائج العمليات تمتع القارئ فقط بينما البحث في المواقف السابقة إنما يفيد الدارس الجاد . إن تحليل حادث بعينه يغير تفاصيل ميكانيكية ، خير ثقافة من بين سائر الثقافات للقراء الذين لهم صبر على متابعة العملية " . (تويني : المرجع السابق ، ص ص 185 ، 228)

كان بوليبيوس يرى إن القيمة الكلية للتاريخ تكمن في معرفة أسباب الأحداث ، وان الحكم السببي هو جوهر الكتابة التاريخية ؛ فالحقائق التاريخية لا قيمة لها اذا لم يرافقها البحث عن أسبابها ؛ فقد يكون الوصف المبسط لهذه الحقائق مسلياً ، غير انه لا ينور عقولنا ولا يقوّم سلوكنا ، وهذا يعني إن للتاريخ غاية عملية ، ولكن هذه الغاية لا تحقق هدفها اذا لم يقترن الوصف بالبحث عن الأسباب . (العبادي ، المرجع السابق ، ص 36) ومن الجدير بالذكر هنا أن نشير إلى أن الهدف الأول لبوليبيوس من تأليفه لكتابه " صعود الإمبراطورية الرومانية " هو معرفة أيباب سيادة الرومان على العالم للفترة 221 – 146 ق . م . (الشكرجي ، المرجع السابق ، ص 12)

حث بوليبيوس المشتغلين بالتاريخ من المحترفين لكتابة التاريخ أو قراءته على " ألا يقصروا اهتمامهم على ما يعالجون من أحداث فقط ولكن خير لهم أن يمعنوا النظر فيما سبق وما واكب وما لحق أي حدث ، لأننا اذا جردنا دراسة التاريخ من أسئلة لماذا وكيف وما السبب أو العلة ؟ بالنسبة إلى أي حدث بذاته ، ومعقولية ما نتج منه أو عكس ذلك ؛ فإن ما يتبقى بعد ذلك لا يكون علماً ، ولكن مجرد جهد مادي ، ربما يحدث متعة وقتية ولكن لا قيمة له في الأعداد للمستقبل ... ليس من العسير أن نحاول توقع ما هو آت من معرفتنا بما حدث " . (توينبي ، المرجع السابق ، ص 173 ؛ العبادي ، المرجع السابق ، ص 20)

ان النزعة العقلانية التحليلية النقدية ، التي تميز بها كل من هيرودوتس وثيوكوديدس وبوليبيوس قد رافقت فترة ازدهار الفلسفة في اليونان ، وبلا شك أنها أثرت في تشكيل وصياغة نمط تفكيرهم ، واتجاهاتهم العالمية ودقتهم وعقلانيتهم في تناول الأحداث التاريخية ، بالدراسة والبحث والكتابة ؛ فنبذوا كل ما هو غير معقول ولا منطقي وبحثوا في الأسباب الشخصية أو السياسية أو الاقتصادية .

المحور الثالث : السببية في العربية والقرآن الكريم

السببية في اللغة العربية لفظة مؤنثة ، تصريفها سَبْبْ سبباً متسبب يتسبب وتسبب مُسَبْبْ وجمع السبب أسباب ، ولكل مسبب سبب والسبب كل شيء يتوصل به إلى غيره ، والله مسبب الأسباب من غير سبب ، ويعني السبب الوسيلة أو الطريقة(الحبل) . (الجوهري ، رتبه وصححه إبراهيم شمس الدين ، شركة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، الطبعة الأولى ، 1433 هـ / 2012 ، معجم الصحاح ، ص ص 491 – 492) لأجل المحدد بوقت وبحكمة من الله عز وجل ، وكذلك الأمم والشعوب لها آجالها وقوانينها ، كل بحسب كدها وسعيها واجتهادها ، أذن لا شيء مرتبط بالصدفة ؛ فحتى في مجال الغيبيات فان المسألة ترتبط بالسنن التاريخية أولاً وآخراً ، وعلى أساس المنطق والعلم والعمل .

لقد وردت السببية في القرآن الكريم بالصيغتين المفردة والجمع ، وذلك في تسع مرات بخمس سور كريمة . وهي بقوله عز وجل : " وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا " . (سورة الكهف ، آية 84) و " فَأَتْبَعَ سَبَبًا " . (سورة الكهف ، آية 85) و" ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا " . (سورة الكهف ، الآيات 89 ، 92) و" فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ " . (سورة الحج ، آية 15) و" وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ " . (سورة البقرة ، آية 166) و"فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ " . (سورة ص ، آية 10) و" لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ". (سورة غافر ، آية 36) و " أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ " . (سورة غافر ، آية 37)

الملاحظ إن السببية في القرآن الكريم قائمة على تصور قوانين السنن الإلهية التي تضبط حركة الوجود ، المتمثلة بالفعل الإلهي المطلق (الربوبية) ، وأن هذه السنن لا تلغي حرية الإرادة الإنسانية. وان السببية الطبيعية والحياة والموت والخلق كلها أسباب يسببها الله عز وجل ؛ فهي خارج إرادة البشر . وفي

ذلك قوله عز وجل : " وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ " (سورة الأعراف ، آية 57) و " وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا " (سورة الفرقان ، آية 48) و " وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۚ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ " (سورة فصلت ، آية 39)

لا مكان للصدفة في هذه السنن " ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ " (سورة آل عمران ، آية 182) ، وتأتي الباء السببية المحسوسة والمرتبطة ، ومن أقواله سبحانه وتعالى في هذه السنن : " سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا " . (سورة الفتح ، آية 23) و " سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا " . (سورة الأحزاب ، آية 62) و " وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ " . (سورة آل عمران ، آية 140) و " وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ " . (سورة ق ، آية 36) و " أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا " . (سورة محمد ، آية 10)

المحور الرابع : السببية بمصادر العصر العباسي

أ- السببية الفلسفية والفلكية والجغرافية :

من الممكن ملاحظة إرهاصات الفكر الفلسفي في التاريخ عند المسلمين ؛ فقد ظهرت في مؤلفاتهم بوقت مبكر ، ذلك انهم لم ينفوا السببية في تواريخ السنين ، وقد أثبتوا الحكمة والتعليل والأسباب والطبائع ، وشكلت هذه المعرفة تراكماً معرفياً غنياً ستظهر آثاره فيما بعد على يد أبن خلدون

ولاسيما فيما يخص الوعي بالسببية التاريخية ، وتعليل الظاهرة الاجتماعية والتقلبات التاريخية الكبرى . (المقدمة ، ص 33)

لقد أشار فيلسوف العرب الكندي المتوفى سنة 252 هـ / 866 م إلى أن الأشياء في الطبيعة تعمل من خلال علل وسيطة وفق علاقة حتمية تربط بين العلة والمعلول ، وقد قسم الكندي العلل إلى قريبة وبعيدة . (دائرة المعارف الإسلامية ، ترجمة الفندي واخرون ، انتشارات جهان ، تهران ، ج 11 ، ص 19) وكانت أبرز سببية عند الكندي هي السببية الطبيعية ، والمعبر عنها بالعامل المناخي ، حيث ركز على أثر المناخ على سلوك البشر وطبائعهم وأخلاقهم ونتاجاتهم العلمية ورؤاهم الفلسفية فضلاً عن ألوانهم وخلقهم . (العبيدي ، دار المحجة البيضاء للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، الطبعة الأولى ، 1432 هـ / 2011 ، جغرافية التفلسف ص ص 9 - 14 ، 25) وقد أخذ بهذا الأثر أيضا الطبيب الفيلسوف أبن سينا المتوفى سنة 427 هـ / 1037 م ؛ فقد أكد على أثر المناخ في الأمراض التي تصيب الأنسان . (العبيدي ، جغرافية الفلسفة ، ص 26)

لقد أهتم إخوان الصفا بتفسير الحوادث على حركة الكواكب (عبد الحميد ، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، الطبعة الأولى ، 1428 هـ / 2007 ، فلسفة التاريخ ، ص 272) وعليهم أعتمد البيروني المتوفى سنة 440 هـ / 1048 م الذي عد الفلك سبب محرك للتاريخ على الأرض فقد أعتمد البيروني على الحساب الستيني البابلي في تتبع أدوار البروج والكواكب . (البيروني ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى 1420 هـ / 200 ، الأثار الباقية عن القرون الخالية ، ص 74) وانعكاسات تلك الكواكب والبروج على فعاليات الناس في الحياة اليومية بحسب منازل القمر والموقع الفلكي للقطر ، وبذلك يكون سلطان الكواكب مؤثراً في سكان الأرض . (البيروني ، تقديم محمود علي مكي ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، 2003 ، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذوله ، ص 92)

إن من أهم شروحاتهم للسببية الفلكية والجغرافية هو بيان اعتقادهم في أسباب اختلاف أخلاق الناس وتوجهاتهم ، وفيما يأتي البعض منها : موجبات أحكام النجوم في أحوال النجوم ، مواليدهم ومساقط نطفهم ، تربة البلدان وطبيعة الهواء فيها ، أديان الآباء والمعلمين والمربين ، أخلاط الأجساد والأمزجة . (دار صادر للطباعة والنشر ودار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، 1376 هـ / 1957 ، الرسائل ، ج 1، ص ص 299 ، 302 – 304 ، ج 3 ، ص ص 250 – 253)

كما أكد المؤرخ الكبير المسعودي المتوفى سنة 345 هـ / 956 م على مسألة فهم الأسباب الكامنة وراء حركة التاريخ ، في تفسير الأحداث التاريخية ، ومنها الربط بين الأحداث التاريخية والعوامل الجغرافية والبيئية والفلكية فضلا عن السياسية ، اذ أعتنى بمسألة بيان أثر المناخ والبيئة الجغرافية في مناقشاته للقضايا والأحداث التاريخية ، وهي الفكرة التي آمن بها كل من اليعقوبي وإخوان الصفا قبله ومسكويه بعده مع بعض الاختلافات في تفاصيل حدود هذا الأثر . (عبد الجميد ، المرجع السابق ، ص 272)

رغم أن المسعودي كانت له آرائه الخاصة في العامل الجغرافي ، التي سبقت آراء الأخرين إلا إن الدلائل كلها تشير إلى اقتباسه هذه الآراء من المفكرين اليونانيين ، ولا سيما الطبيب والفيلسوف والكاتب الإغريقي أبقراط *Hippocratic* (460 – 370 ق . م) ، وكذلك أشار المسعودي إلى عوامل وأسباب تفسير حركة التاريخ ، كتأثير حركة الكواكب على الحوادث الطبيعية والبشرية ، وكان هذا التفسير سائداً عند قدماء البابليين والسريان والعبرانيين واليهود والنصارى والصابئة والحرانيون والروم ، ومن العرب أهتم بهذه المعرفة أفراد من كنانة يدعون بـ القلانس (قلمس) . (المسعودي ، تحقيق عفيف نايف خاطوم ، دار صادر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، 1426هـ / 2005 ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج 2 ص ص 105 – 106)

لقد لوحظ أنه في أواخر القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي عاد فلاسفة المسلمين من جديد إلى النظرية الجغرافية في بيان أسباب الحوادث التاريخية . حيث عرض الفيلسوف والرياضي والفلكي والطبيب والأديب أبن طفيل الأندلسي المتوفى سنة 580 هـ / 1180 م قصته المشهورة " حي بن يقضان " ، ليرسخ من خلالها النظرية الجغرافية للتأكيد على أثر البيئة المناخية والموقع الجغرافي في حياة الإنسان . (أبن طفيل ، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ، القاهرة ، 2012 ، حي بن يقضان ، ص ص 5 – 8) كما أكد على السببية كأساس للعلم والمعرفة والحكمة الفيلسوف والطبيب والفقيه والجغرافي والفلكي الأندلسي أبن رشد المتوفى سنة 595 هـ / 1198 م فمن أقواله : " إن العلم هو معرفة الأشياء بأسبابها ...[و] الحكمة هي معرفة الأسباب الغائية ...[و] من جحد كون الأسباب مؤثرة بإذن الله في مسبباتها أنه قد أبطل الحكمة وأبطل العلم ...[و] القول بإنكار الأسباب جملة هو قول غريب جداً عن طباع الناس ". (أبن رشد ، مطبعة الأنجلو المصرية ، د . م ، الطبعة الثانية 1964 ، الكشف عن مناهج الأدلة ، ص 233)

أما الفيلسوف الفارابي المتوفى سنة 260 هـ / 874 م فكانت للسببية عنده أهمية خاصة إذ تعمق في دراسة أسباب الوجود ، وأعتبر السببية محوراً مركزياً في الأحداث ، وهو بذلك يرفض المصادفة في الطبيعة رفضاً قاطعاً ، ويؤكد على مبدأه السببي بأن لا شيء يتكون بذاته ، لقد ربط الفارابي السببية بالعلاقة بين الفكر والواقع والعلم بالحرية ، وأعطى العقل الدور الأساس في التعرف إلى الواقع أو تغييره . كما انه أشار إلى الأسباب القريبة والبعيدة .(إبراهيم ، مجلة المنتدى للدراسات الإنسانية ، المجلد 1 ، العدد 8 ، المنتدى الوطني لأبحاث الفكر والثقافة ، دار وكتبة البصائر للطباعة والنشر والتوزيع ، النجف الأشرف ، 2012 الفلسفة الطبيعية عند الفارابي ص 55)

من الجدير بالذكر أن نظرية أبن سينا في السببية قد تشابهت واتفقت مع نظرية الفارابي ، أولا لقد مزج ابن سينا الفلسفة الأفلاطونية مع عناصر من الفلسفة الأرسطية ، ومن ثم بين أن المعلول يحدث

وجـــوباً اذا حـــدثت علتـــه . فيقـــول في ذلـــك : " اذا وجـــد الســـبب وُجـــد المســـبب " . (بلكـــا ، هرنـــدن فرجينيـــا الطبعـــة الأولى ، 1429 هـ / 2009 ، الوجود بين السببية والنظام ، ص 41)

ب- السببية التاريخية :

ظهـــرت بـــوادر أفكـــار ورؤى فلســـفية في كتابـــة التـــاريخ عنـــد المـــؤرخ اليعقـــوبي المتـــوفى ســـنة 292 هـــ / 904 م ، ولا ريـــب إنهـــا ســـاهمت بإعطـــاء فهـــم لا بأس بـــه لـــدى المـــؤرخين المعاصـــرين واللاحقـــين لـــه لفهـــم روحيـــة العصـــر الـــذي يكتبـــون ويؤرخـــون لـــه . ولاســـيما في التعليـــل للكثـــير مـــن الأحـــداث العامـــة الحضـــارية الـــتي تمـــر بهـــا المجتمعـــات الإنســـانية ، وهـــو مـــا ورود في كتابـــه المعنـــون " مشـــاكلة النـــاس لزمـــانهم " ، والزمـــان هنـــا يقصـــد بـــه الســـلطان والحـــاكم . (الطرطوشـــي ، المطبعـــة المحمديـــة التجاريـــة ، مصـــر ، الطبعـــة الأولى ، 1354 هـــ / 1935 ، ســـراج الملـــوك ، 194)

يبـــين اليعقـــوبي إن طبيعـــة ســـيرة وسياســـة الحـــاكم والســـلطان تـــنعكس علـــى ســـلوكيات أفـــراد المجتمـــع بتقليـــدهم الطـــاغي لحكـــامهم وســـلاطينهم ؛ (تحقيـــق وتقـــديم مضـــيوف الفـــرا ، مجلـــة مركـــز الوثائـــق والدراســـات الإنســـانية ، قطـــر ، الســـنة الخامســـة ، العـــدد الخـــامس ، 1414 هـــ / 1993 ، مشـــاكلة النـــاس لزمـــانهم ، ص ص 9 – 13) فيـــذهبون مذاهبـــه ويقلـــدون أعمالـــه فيمـــا يـــرون منـــه ، ولا يخرجـــون عـــن أخلاقـــه وأفعالـــه وأقوالـــه ويتشـــبهون بســـلوك ســـبله ، ولـــذا فـــان ســـير وأخـــلاق وأعمـــال الحكـــام تصـــبغ طـــابع الأغلبيـــة مـــن أفـــراد مجتمعـــاتهم في ســـلوكياتهم وتطلعـــاتهم . (اليعقـــوبي ، مشـــاكلة النـــاس لزمـــانهم ، ص ص 14 – 28) ومـــن المحتمـــل أن يكـــون اليعقـــوبي قـــد تأثـــر بأبـــن المقفـــع الـــذي يقـــول فيـــه : " النـــاس علـــى ديـــن ملـــوكهم إلا القليـــل ؛ فـــإن يكـــن للـــبرّ والمـــروءة نفـــاق فسيكســـد بـــذلك الفجـــور والـــدناءة في آفـــاق الأرض ". (الطرطوشي ، المصدر السابق ، ص 194)

يبدو إن الماوردي المتوفى سنة 450 هـ / 1058 م قد تأثر بدوره باليعقوبي ولذا تشابهت رؤيته معه اذ يقول : " السلطان في نفسه إمام متبوع ، وفي سيرته دين مشروع ؛ فأن ظلم لم يعدل أحد في حكم ، وأن عدل لم يجسر أحد على ظلم ".(الماوردي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الرابعة 1426 هـ / 2005 ، أدب الدنيا والدين ، ص ص 135 – 137) ولهذا فهو لم يفصل العامل السياسي عن بقية العوامل الأخرى ، ففي إشارته للتسلل الأجنبي إلى مؤسسات الدولة ، وما يخلفه من شقاق وفرقة ونزاع في العلاقة بين الناس وحكامهم ، الأمر الذي خلق واقعاً فاسداً ومأساوياً أضر كثيراً بالمجتمع العربي الإسلامي ، وقد تعرض للمسألة بقوله : " الإبانة عن الأسباب التي من جهتها يعرض الاختلال والفساد في الممالك وفي أحوال الملوك " (الماوردي ، تحقيق خضر محمد خضر ، مكتبة الفلاح ، الكويت ، الطبعة الأولى 1403 هـ / 1983 ، نصيحة الملوك ، ص 67) ، وفي قوله عن حسم أطماع العدو بحسن التدبير في الأمور يقول : " واستشارة ذوي الألباب والرأي والتجارب ؛ فقد قيل كابد عدوك بإصلاح عيوبك " . (الماوردي ، نصيحة الملوك ، ص76) في حين ربط الطرطوشي بين سببية الدوافع الإنسانية في الظاهرة الاجتماعية ، وعلاقتها مع الواقع السياسي ، وأستند في ذلك على القاعدة التي ترى إن العدل أساس كل مملكة سواء كانت نبوية أم إصلاحية . (الطرطوشي : المصدر السابق ، ج 3 ، ص 203 ؛ الجابري : المرجع السابق ، ص 139)

تمثلت أفكار ورؤى المسعودي بالسببية التاريخية في الملك والدولة كمثل : بيانه للموجبات والأسباب التي تحتم انه لابد للملك من دين ، كما لابد للدين من ملك ولا قوام لأحدهما إلا بصاحبه . وأشارته إلى أسباب وأمارات أقبال الدول وقوتها . واستعراضه لكيفية وأسباب انحلال الدول وزوالها والآفات التي تدخل على الملك والدين الداخلية منها والخارجية العارضة ، فضلا عن توضيح أسباب أبادت الشرائع والملل.(المسعودي ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، 1993 ، التنبيه والأشراف ، ص 18)

أمـا السـببية التاريخيـة عنـد مسـكويه فهـي أوضـح أسـلوب تعاطـاه في كتابتـه التاريخيـة ؛ فهـو قـد بحـث في الأسـباب والنتـائج بشـكل مجـرد وبصـفة واقعيـة ، حـتى عـد المـؤرخ الإسـلامي الأول الـذي أعطـى السـببية التاريخيـة ديناميكيـة علميـة ودوراً مهمـاً ووظيفـة أساسـية في الكتابـة التاريخيـة . اذ كـان كثـير التحليـل المنطقـي المبـني علـى قواعـد متينـة مـن الواقعيـة العمليـة الـتي وظفهـا مسـكويه بإتقـان للوصـول إلى أسـباب مقنعـة ودقيقـة ونتـائج عقلانيـة . (مسـكويه ، تحقيـق سـيد كسـروي حسـن ، دار الكتـب العلميـة ، بـيروت ، الطبعـة الأولى ، 1424 هـ / 2002 ، تجـارب الأمـم ، ج 1 ، ص ص 164 ، 290 ، 312 ؛ حمـود ، دار النهضـة العربيـة ، بـيروت ، الطبعـة الأولى ، 1436 هـ / 2015 ، الدولـة العباسـية مراحـل تاريخها وحضارتها ، ص 19)

لم يكتفـي مسـكويه بـذكر سـبب واحـد لتعليـل وتفسـير الأحـداث التاريخيـة ، بـل انـه كـان دائمـاً يـورد عـدة أسـباب مجتمعـه لتفسـير أي حـدث، كمـا جعـل المصـادفه مقابـل الغيـب في تحليلـه الأحـداث ، [79] ولقـد وظـف مسـكويه السـببية التاريخيـة خـير توظيـف ، في مسـألة اسـتنباط القـوانين الاجتماعيـة المـؤثرة في حركـة التـاريخ ، كمثـل بيانـه أسـباب الاجتمـاع الإنسـاني وهـي أولا لكـون الإنسـان مـدني بطبعـه وثانيـا للحاجـات الإنسـانية المعاشـية . وفي هـاتين النقطتـين يفسـر مسـكويه رأيـه بقولـه إن الإنسـان : " آنـس بالطبع وليس بوحشي ولا نفور " ، (80- مسـكويه ، تحقيـق نـواف الجـراح ، دار صـادر ، بـيروت الطبعـة الأولى ، 1427 هـ / 20006 ، تهـذيب الأخـلاق وتطهـير الأعـراق ، ص ص 110 ، 138) وأنـه : " محتـاج إلى مدينـة فيهـا خلـق كثـير لتـتم لـه السـعادة الإنسـانية ؛ فكـل إنسـان بالطبـع وبالضـرورة يحتـاج إلى غـيره " . (مسـكويه ، تهـذيب الأخـلاق وتطهـير الأعـراق ، ص ص 110 ، 138) وكـذلك إشـارته إلى التمـدن والمدنيـة : " أن يتمـدن النـاس أي يجتمعـوا ويتوزعـوا الأعمـال والمهـن ، ليـتم مـن الجميـع هـذا الشـيء المطلـوب " [82] كمـا ويبـين أسـباب الحاجـة إلى التعـاون والاجتمـاع والنظـام والسـلطان ؛ فحاجـات الإنسـان المسـتمرة والمتزايـدة تـدعوا إلى التعـاون والاجتمـاع ، وان هـذا التعـاون

والاجتماع حتماً سيتطلب فرض النظام ليقر الاجتماع ويديره وينفذه ، ويكون عليه قيماً ومراقباً وحافظا ومدبرا وسائساً ، لتوزيع الأعمال وتداول الأموال . (مسكويه ، ، تحقيق أحمد أمين والسيد أحمد صقر ، القاهرة ، 1370 هـ ، الهوامل والشوامل ، ص 347)

من الجدير بالملاحظة أن النزعة السببية سيطرت تماما على الماوردي المتوفى سنة 450 هـ / 1058 م في تفسيراته وتحليلاته لحركة التاريخ ؛ شدد الماوردي على ضرورة النظر في أمور الدنيا وسبر أحوالها والكشف عن جهة انتظامها ، لتعلم أسباب صلاحها وفسادها ومواد عمرانها وخرابها لتتنفي عن أهلها شبه الحيرة ، وتتجلى لهم أسباب الخيرة ؛ فيقصدوا الأمور من أبوابها ، ويعتمدوا صلاح قواعدها وأسبابها . ويلجأ الماوردي عند معالجته أية قضية أو مسألة تاريخية أو إصلاحية إلى السببية ؛ فيقول على سبيل المثال عن أسباب حصلة التكبر في الأنسان : " فمن أقوى أسبابه علو اليد ، ونفوذ الأمر وقلة مخالطة الأكفاء ؛ فاذا قطع أسباب الكبر وحسم مواد العجب ، أعتاض بالكبر تواضعاً وبالعجب تودداً وذلك من أوكد أسباب الكرامة وأقوى مواد النعم وأبلغ شاف إلى القلب " . (الماوردي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الرابعة ، 1426 هـ / 2005 ، أدب الدنيا والدين ، ص 135 ؛ نصيحة الملوك ، ص ص 99 – 100)

كما جعل الماوردي لشرط الحياة البشرية سببين أساسيين هما العمل والأتلاف . (عبد الحميد ، المرجع السابق ، ص 198) وذلك لأن الإنسان منذ ابتداء الخليقة هو مطبوع على الافتقار إلى جنسه وإن استعانته بجنسه هي صفة ملازمة لطبعه ؛ فقد جعل الله للإنسان لنيل حاجاته أسباباً ، ولدفع ضعفه وعجزه حيلاً دله عليها العقل وأرشده اليها بالفطنة لسد حاجة بعضهم إلى بعض فيقول : " فإذا تساوى جميعهم لم يجد أحدهم إلى الاستعانة بغيره سبيلاً ، وبهم من الحاجة. (الماوردي : أدب الدنيا والدين ص ص 132 – 133 ، 134)

لقد أظهر أبن الأثير كمؤرخ عقلية تحليلية لابأس بها ، من خلال بحثه عن السببية التاريخية في كتاباته التاريخية ، تعد محاولات قد سبقت تحليلات وفلسفة أبن خلدون . (شيساني ، دار الكتب العلمية بيروت ، د . ت ، عز الدين أبن الأثير الجزري ، ص 17) نذكر منها على سبيل المثال : اعتقاده إلى إن المنطق التأديبي لتعليل الحوادث الجسيمة التي تحرك تاريخ الأمم ، مصدرها هو إرادة الله . (الجابري ، المرجع السابق ، ص ص 151 ، 158) وقوله في أسباب تحول الملك عن صلب من يبدأه : " وقد اعتبرت التواريخ ؛ فرأيت كثيراً من التواريخ الإسلامية ، التي لا يمكن ضبطها ورأيت كثيراً ممن يبتدئ الملك تنتقل الدولة عن صلبه إلى بعض أهله وأقاربه ... والذي أظنه السبب في ذلك ، أن الذي يكوّن أول دولة يكبر ويأخذ الملك ، وقلوب من كان فيه متعلقة به ؛ فلهذا يحرمه الله أعقابه ".(أبن الأثير دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، 2008 ، الكامل في التاريخ ، ج 1 ، ص 14) ورأيه أن أغلب المؤرخين يهتمون بالحوادث الثانوية والجزئية الخاصة ويتركون التواريخ العامة . (أبن الأثير : المصدر السابق ، ج 1 ، ص 4) وهو السبب في غياب التعليل العقلاني المعتدل . (أبن الأثير ، المصدر السابق ، ج 1 ، ص 1) ومحاولته استكشاف القانون المحرك للتاريخ ! مع اعتقاده بأن التاريخ لا يتكرر ولا يدور حول محور واحد ، وقد استعرض التاريخ العراقي والمصري واليمني القديم ، بالتحليل الشمولي وربط الأحداث ، واستنتاج الأجوبة في إطار البصيرة التاريخية العقلانية والنظرة القدية ، التي تتفحص الظاهر والباطن ، والتي مكنته من التوقع السببي ، معتمداً على منطق تسلسل الأحداث وترابط نتائجها مع مقدماتها ، حتى جاءت الأحداث بعد وفاته بربع قرن متوافقة مع توقعاته . (الجابري ، المرجع السابق ، ص 159) ومنها على سبيل المثال توقعاته للزحف المغولي قد حذر منه منذ بدايته بقوله : " نسأل الله أن ييسر للإسلام والمسلمين من يقوم بنصرتهم ؛ فقد دفعوا إلى أمر عظيم من قتل النفس ونهب الأموال واسترقاق الأولاد ، وسبي الحريم وقتلهن وتخريب البلاد " . (أبن الأثير ، المصدر السابق ، ج 9 ، ص 353 ، ج 10 ، ص 414)

الخاتمة :

لا يمكن لأي إنسان أن يفهم حدوث شيئاً بدون أن يتساءل عن أسباب حدوثه . والعقل هو مدعاة البحث عن هذه الأسباب . ولذلك تطغى العقلانية على عملية البحث عن الأسباب والأدلة والشواهد عند وقوع أي حدث . إذن فالسببية هي مبدأ عقلي ومن ثم فلسفي ، تستند عليه مسألة التفكر والتأمل ، وان الجهل بالأسباب لا يعني عدم وجودها ، سواء كانت طبيعية أم بشرية ، أو حتى ميتافيزيقية من نوع السنن الإلهية المهم أن يكون هناك سبباً لأي حدث .

لقد مرت السببية أو العلية برحلة إنسانية فكرية وعلمية وفلسفية مرافقة لعلوم وفكر الشعوب وحضاراتها . كما هي عند فلاسفة وعلماء الإغريق واليونان ومؤرخيهم . كما ادرك المسلمين أهميتها وقيمتها بفهمهم لها من آيات القرآن الكريم ، وتداول فلاسفتهم مفهومها لاسيما بالعصر العباسي كالكندي وإخوان الصفا والفارابي وأبن سينا وأبن طفيل وأبن رشد وعلى ما يبدو إن هذا الأسلوب في التفكير المعرفي قد أثر في البعض من مؤرخيهم وفوهائهم ، ظهرت في كتاباتهم التاريخية كاليعقوبي والمسعودي ومسكويه وأبن الأثير والماوردي ؛ فشكلت كومضات لإرهاصات أفاد منها ولا ريب فيما بعد أبن خلدون باعترافه في تشكيل مفهوم لفلسفته التاريخية .

قائمة المصادر والمراجع :

أولا : المصادر :

1- القرآن الكريم .

2- أبن الأثير ، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد الشيباني (ت 630 هـ / 1232 م) : الكامل في التاريخ ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، 2008 م .

3- أبـــن خلـــدون ، أبـــو زيـــد ولي الـــدين عبـــد الـــرحمن بـــن مُحَمَّد الحضـــرمي الأشـــبيلي (ت 808 هـــ / 1406 م) : المقدمـــة ، دار أحيـــاء الـــتراث العـــربي ، بيروت ، د . ت .

4- ابـــن رشـــد ، أبـــو الوليـــد مُحَمَّد بـــن أحمـــد بـــن مُحَمَّد (ت 595 هـــ / 1198 م) : الكشـــف عـــن منهـــاج الأدلـــة في عقائـــد الملـــة ، مطبعـــة الأنجلـــو المصـــرية ، د . م ، الطبعة الثانية ، 1964 م .

5- أبـــن طفيـــل ، أبـــو بكـــر مُحَمَّد بـــن عبـــد الملـــك بـــن مُحَمَّد القيســـي الأندلســـي (ت 581 هـــ / 1185 م) : حـــي بـــن يقظـــان ، مؤسســـة هنـــداوي للتعلـــيم والثقافة ، القاهرة ، 2012 م .

6- أخـــوان الصـــفا ، مجموعـــة أخـــوان الصـــفا في القـــرن الثالـــث والرابـــع الهجـــري / التاســـع والعاشـــر المـــيلادي : رســـائل أخـــوان الصـــفا ، دار صـــادر للطباعـــة والنشر ودار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، 1376 هـ / 1957 م .

7- البيروني ، أبي الريحان مُحَمَّد بن أبي أحمد (ت 440 هـ / 1048 م) :

أ- الآثار الباقية عن القرون الخالية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، 1420 هـ / 200 م .

ب- تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذوله ، تقديم محمود علي مكي ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، 2003 م .

6- الجـــوهري ، أسماعيـــل بـــن حمـــاد (ت 393 هـــ / 1002 م) : معجـــم الصـــحاح ، رتبـــه وصـــححه إبـــراهيم شمـــس الـــدين ، شـــركة الأعلمـــي للمطبوعات ، بيروت ،الطبعة الأولى ، 1433 هـ / 2012 م .

7- الطـــبري ، أبي جعفـــر مُحَمَّد بـــن جريـــر (ت 310 هـــ / 922 م) : تاريـــخ الطـــبري تاريـــخ الأمـــم والملـــوك مراجعـــة وتقـــديم نـــواف الجـــراح ، دار ومكتبـــة الهلال ، د . م ، الطبعة الأولى ، د. ت .

8- الطرطوشـــي ، أبـــو بكـــر مُحَمَّد بـــن مُحَمَّد بـــن الوليـــد الفهـــري الأندلســـي (ت 520 هـــ / 1126 م) : ســـراج الملـــوك ، المطبعـــة المحمديـــة التجاريـــة ، مصـــر ، الطبعة الأولى ، 1354 هـ / 1935 م .

9- الماوردي ، أبو الحسن علي بن مُحَمَّد بن حبيب (ت 450 هـ / 1058 م) :

أ- أدب الدنيا والدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الرابعة ، 1426 هـ / 2005 م .

ب- نصيحة الملوك ، تحقيق خضر مُحَمَّد خضر ، مكتبة الفلاح ، الكويت ، الطبعة الأولى ، 1403 هـ / 1983 م .

10- المسعودي ، قطب الدين أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت 346 هـ / 957 م) :

أ- التنبيه والأشراف ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، 1993 م .

ب- مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق عفيف نايف خاطوم ، دار صادر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، 1426هـ / 2005 م .

11- مسكويه ، أبو علي أحمد بن مُحَمَّد بن يعقوب الرازي (ت 421 هـ / 1030 م) :

أ- تجـــارب الأمـــم وتعاقـــب الهمـــم ، ، تحقيـــق ســـيد كســـروي حســـن ، دار الكتـــب العلميـــة ، بـــيروت ، الطبعـــة الأولى ، 1424 هـــ / 2002 م .

ب- تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق ، تحقيق نواف الجراح ، دار صادر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، 1427 هـ / 20006 م .

ت- الهوامل والشوامل ، تحقيق أحمد أمين والسيد أحمد صقر ، القاهرة ، 1370 هـ .

12- هيرودوت : تاريخ هيرودوت ، ترجمة عبد الإله الملاح ، مراجعة أحمد السقاف وحمد بن صراي ، إصدارات المجمع الثقافي ، أبو ظبي 1422 هـ / 2001 م .

13- اليعقوبي ، أبن واضح أحمد بن إسحاق بن يعقوب (ت 292 هـ / 904 م) : مشاكلة الناس لزمانهم وما يغلب عليهم في كل عصر تحقيق وتقديم مضيوف الفرا ، مجلة مركز الوثائق والدراسات الإنسانية ، قطر ، السنة الخامسة ، العدد الخامس ، 1414 هـ / 1993م

ثانياً : المراجع :

1- أتكن ، هيوج : دراسة التاريخ وعلاقتها بالعلوم الاجتماعية ، ترجمة محمود زايد ، تقديم قسطنطين زريق ، مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر ، دار العلم للملايين ، بيروت ، 1963 م .

2- بلكا ، إلياس : الوجود بين السببية والنظام ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، هرندن ، فرجينيا الطبعة الأولى ، 1429 هـ/ 2009م

3- توينبي ، أرنولد : الفكر التاريخي عند الإغريق ، ترجمة لمعي المطيعي ، مراجعة محمد صقر خفاجة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، 1966 م .

4- الجابري ، علي حسين : فلسفة التاريخ والحضارة في الفكر العربي ، دار الكتاب الثقافي ، دار الشؤون الثقافية العامة ، أربد ، بغداد ، 1993 م .

5- حمود ، سوزي : الدولة العباسية مراحل تاريخها وحضارتها 132 – 656 هـ / 750 – 1258 م مراجعة عصام شبارو ، دار النهضة العربية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، 1436 هـ / 2015 م .

6- زقزوق ، محمد حمدي : تمهيد للفلسفة ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الخامسة ، 1994 م .

7- الزين ، سميح عاطف : معجم تفسير مفردات القرآن الكريم ، الدار الأفريقية العربية ، بيروت ، الطبعة الرابعة ، 1422 هـ / 2001 م

8- شميساني ، حسن : عز الدين أبن الأثير الجزري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د . ت .

9- عبد الباقي ، محمد فؤاد : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، أنتشارات أسلامي ، طهران 1378 هـ .

10- عبد الحميد ، صائب : فلسفة التاريخ في الفكر الإسلامي ، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، الطبعة الأولى ، 1428 هـ / 2007 م .

11- العبيدي ، حسن مجيد : جغرافية التفلسف ، دار المحجة البيضاء للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، الطبعة الأولى ، 1432 هـ / 2011 م .

12- كرم ، يوسف : تاريخ الفلسفة اليونانية ، مراجعة وتنقيح هلا رشيد أمُّون ، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع ، د . م ، د . ت .

13- النجار ، جميل موسى : دراسات في فلسفة التاريخ النقدية ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد الطبعة الأولى ، 2004 م .

14- النشار ، مصطفى حسن :

أ- نظرية العلم الأرسطية دراسة في منطق المعرفة العلمية عند أرسطو ، دار المعارف ، القاهرة الطبعة الثانية ، 1995 م .

ب- فلسفة التاريخ معناها ونشأتها وأهم مذاهبها ، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة ، عمان الطبعة الأولى ، 1433 هـ / 2012م .

15- اليزدي ، محمد تقي مصباح : المنهج الجديد في تعليم الفلسفة ، محمد عبد المنعم الخاقاني ، دار التعارف للمطبوعات ، بيروت 1428 هـ / 2007 م .

ثالثا: المجلات والدوريات:

1- إبراهيم ، سامي محمود وكيورك مرزينا كرومي : الفلسفة الطبيعية عند الفارابي ، مجلة المنتدى للدراسات الإنسانية ، المجلد 1 ، العدد 8 ، المنتدى الوطني لأبحاث الفكر والثقافة ، دار وكتبة البصائر للطباعة والنشر والتوزيع ، النجف الأشرف ، 2012 م .

2- العبادي ، مصطفى : نشأة الفكر التاريخي وتطوره عند اليونان ، مجلة عالم الفكر ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، العدد 1 ، المجلد 31 ، سبتمر ، 2002 م .

3- دائرة المعارف الإسلامية ، ترجمة محمد ثابت الفندي واحمد الشنتناوي وإبراهيم زكي خورشيد وعبد الحميد يونس ، انتشارات جهان ، تهران .

رابعاً : الاطاريح الجامعية والمواقع الإلكترونية :

1- السايح ، حمادي : الفكر التاريخي بين التطوير والتنظير عند البيروني ، أطروحة دكتوراه ، جامعة وهران ، كلية العلوم الاجتماعية ، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي الجزائري ، 2013 م .

1- الشكرجي ، جعفر حسن : السببية التاريخية عند اليونان ، موقع جامعة بابل ، كلية الآداب ، المقالات الأكاديمية ، 15 / 6 / 2011 م .